الفصل الثالث

(الدور العلمي والتعليمي للأزهر في أفريقيا)

1 – استقبال الدارسين من طلبة العلم والعلماء الأفارقة.

2 – إنشاء الأروقة اللازمة لإقامة الطلاب الأفارقة بالمجان.

3 – الأوقاف التي كانت تُخصَّص للإنفاق على الطلبة.

4 – العلوم التي كان الأفارقة يدرسونها في مصر.

5 – تأثير الطلبة الأفارقة وتأثرهم بالحياة المصرية.

6 – إرسال بعض علماء الأزهر إلى أنحاء القارة .

7 – المساهمة في إنشاء العمائر التعليمية.

8 – الحفاظ على الهوية العربية والثقافة الإسلامية .

9 – بروز دور الجامع الأزهر الشريف عن نظائره من الجوامع الأخرى في القارة .

10 – الدور العلمي والتعليمي للأزهر بعد عصر المماليك .

obeikandl.com

1 - استقبال الدارسين من طلبة العلم والعلماء الأفارقة

تميّز دور الأزهر العلمي والتعليمي في أفريقيا بكثرة التنوع والاتساع ، فلم يترك أمراً من أمور العلم والتعليم إلا وكانت له مساهماته الجادة فيه ، وأول هذه الأمور هو استقبال الدارسين من طلبة العلم والعلماء الأفارقة لينهلوا من علومه ومعارفه التي ازدهرت فيه وخاصة في عصر سلاطين المماليك .

وكان الأزهر يعتبر بالنسبة لأبناء القارة الأفريقية كعبة علمية يتمنون الالتحاق بها للاستزادة من علومه ، والتلمذة على شيوخه ، فبعد أن يتم الطالب دراسته في بلده الأصلية ، ويجد لديه الرغبة في تحصيل المزيد من العلوم الإسلامية ، يبدأ في شد رحاله تجاه الجامع الأزهر على وجه الخصوص ، وذلك لأسباب تميز بها الأزهر ، منها وجود إمكانية لدراسة معظم المذاهب الإسلامية ، مع تحصيل قدر وافر وعظيم في علوم اللغة العربية ، بالإضافة لشهرة مصر في عصر سلاطين المماليك والإغداق الذي كانوا يغدقونه على طلبة العلم والعلماء على مختلف جنسياتهم وألوانهم [1] وكان الذي يتولى إرسال هؤلاء الطلاب هم العلماء والتجار ورجال الطرق الصوفية [2] ، بالإضافة لقيام بعض هؤلاء العلماء والطلاب بالسفر على نفقتهم الشخصية ، كما أن رحلات الحج كانت تجذب كثيراً من هؤلاء الطلاب للقيام بالفريضة وبعد أدائها كانوا يقيمون بمصر في أروقة الجامع الأزهر لتلقّي العلم والمعرفة .

وبالنسبة للطرق التي استخدمها هؤلاء العلماء والتجار في القدوم لمصر فهي الطرق التجارية التي كانت تربط مصر بأنحاء القارة ، وأشهرها طريق درب الأربعين الذي كان يمر عبر واحات الصحراء الغربية إلى السودان ومنه إلى تشاد والنيجر ومنه إلى

---

1 - عبد العزيز محمد الشناوي : مرجع سبق ذكره ، ص 136 .

2 - حسن إبراهيم حسن : مرجع سبق ذكره ، ص 17 .

أقصى القارة [1] ، وكانت هناك طرق أخرى مثل الطريق الذي يبدأ من المغرب ويصل إلى حوض نهر السنغال ونهر النيجر ، وأيضاً هناك طريق يربط بين الجزائر والنيجر وطريق يربط بين ليبيا وتونس وتشاد ، وغني عن الذكر أن كل هذه الطرق كانت تصب في مصر [2] لأنها المعبر إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج التي كان يحرص عليها الأفارقة .

ولم يكن اختراق تلك الطرق بالأمر اليسير ، حيث كانت القوافل تتعرض لمخاطر العطش وأحياناً كانت تتعرض لغارات اللصوص وخطر التيه في الصحراء الشاسعة ، ولذا كانت تعتمد على أدلة يقومون بقيادة تلك القوافل عبر الفيافي ويطلق على الدليل لقب التكشيف[3].

وبعد وصول هؤلاء الطلاب إلى مصر يبدأون في تسجيل أسمائهم لدى مسئولي الجامع الأزهر وشيوخ الأروقة ، موضحين أسماء بلادهم القادمين منها وأسماء مذاهبهم ، ويبدأ بعد ذلك إما تقييدهم كطلبة مقيمين في الأروقة أو طلبة منتظرين[4]. وبذلك لم تكن هناك أي شروط متعسفة لإلحاق هؤلاء الطلاب بالأزهر ، بل كانت كلها شروطاً ميسرة ، مما كان له الأثر الأكبر في ازدياد الإقبال على الالتحاق بالجامع .

وقد تعددت جنسيات هؤلاء الطلاب الذين يستقبلهم الأزهر بين جنباته ، ما بين طلاب من بلاد المغرب العربي وبلاد غرب أفريقيا ، وبلاد شرق أفريقيا [5] كما تعددت المذاهب الفقهية التي كانوا يتبعونها فهناك طلبة الشمال والغرب الأفريقي أتباع المذهب المالكي وبلاد شرق أفريقيا أتباع المذهب الشافعي والحنفي . كما لم تتوقف نوعيات

---

1 - محمد بن عمر التونسي : تشحيذ الأذهان ، ص 47، 48 .

2 - المرجع السابق ، ص 47، 48 .

3 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 441 .

4 - عبد العزيز الشناوي : مرجع سبق ذكره ، ص 246 .

5 - يظهر ذلك في تعدد الأروقة فلكل جنسية رواقها الخاص انظر علي مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ 4 ، ص 49 - 58.

هؤلاء القادمين على الطلبة فقط بل كانت تضم أيضاً علماء أتوا للاستزادة من العلم ومقابلة العلماء المصريين ، وأيضاً للاستفسار عن مسائل فقهية معينة .

وقد بلغ عدد الطلبة الوافدين إلى الأزهر ، بعد أن عادت إليه حياته العلمية في عصر دولتي المماليك ، ما يقرب من حوالي سبعمائة وخمسين طالباً كما ذكرهم المقريزي في كتابه [1] وكان عدد الطلبة يزداد بصورة مستمرة مما أدى في النهاية إلى قيام الأزهر بإنشاء الأروقة اللازمة وتجديدها لكي تستطيع استيعاب تلك الأعداد المتزايدة .

1 - المقريزي : الخطط ، جـ 3 ، ص 163 .

obeikandl.com

2 - إنشاء الأروقة اللازمة لإقامة الطلاب الأفارقة بالمجان

كان من نتيجة ازدياد عدد الطلبة الراغبين في تلقي العلم بالأزهر ، أن أقيمت لهم الأروقة ، التي كانوا يقيمون فيها وهي أشبه ما تكون بالمدن الجامعية حالياً ، وقد أصبحت هذه الأروقة من أبرز الخصوصيات التي تميز بها الجامع الأزهر ، حيث لم يتم تخصيص الأروقة لإسكان الطلاب إلا في الجامع الأزهر ، على الرغم من أنها تدخل في تصميم أي مسجد ، والمقصود بالتميز هنا هو جعلها أماكن للإقامة[1].

وتعود بداية إنشاء الأروقة وتجهيزها للدراسة إلى عصر دولتي المماليك ، فقد بدئ في إنشاء هذه الأروقة أثناء عمارة الجامع التي تمت بعد زلزال سنة 702 هـ / 1302 م حيث تم عمل عدة مقاصير ، وتم وضع صناديق وخزائن بها [2] كما تزامن تحويل الأروقة كمكان لإقامة الطلبة مع الفترة التي تمت فيها إعادة الأوقاف للجامع الأزهر بعد إعادة الخطبة فيه.

وكانت الأروقة تُقسَّم حسب البلاد التي يفد منها الطلاب أو حسب المذهب الفقهي ، فكان يتم تخصيص رواق لكل أبناء بلد واحد ، ورواق لكل أصحاب مذهب معين [3] وقد اختلفت الأروقة فيما بينها حسب العدد أو الموارد المالية التي كانت تخصص لها .

ومن أشهر الأروقة التي وجدت بالأزهر وتخص الأفارقة رواق المغاربة [4] ، ورواق البرنو [5] ورواق الدكارنة [6] ورواق الجبرت [7] ورواق دكارنة صلح [8] ورواق البرابرة.

---

1 - معنى كلمة رواق هو السقف في مقدم البيت ، انظر الرازي مختار الصحاح ، ص 264 .

2 - عبد العزيز الشناوي : مرجع سبق ذكره ، ص 251 .

3 - المقريزي : الخطط ، جـ 3 ، ص 161 .

4 - المرجع السابق ، ص 243 .

5 - عبد العزيز الشناوي : نفس المرجع ، ص 261 .

6 - علي مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ 4 ، ص 54 .

7 - المصدر السابق ، جـ 4 ، ص 52 .

8 - نفسه ، جـ 4 ، ص 54 .

وكان رواق المغاربة يأتي على رأس هذه الأروقة من حيث عدد طلابه ومساحته وكان هذا الرواق يقع في غرب صحن المسجد ، وقد تمت عدة تجديدات فيه ، حيث قام السلطان الأشرف قايتباي بتجديده كما ألحقت به مكتبة كبيرة ، وقد شهد هذا الرواق نزول العالم ابن خلدون فيه أثناء فترة إقامته في مصر حيث قضى فترة قام فيها بالتدريس في الأزهر[1]

أما عن رواق الجبرت فخصص للطلبة الوافدين من شرق القارة ، وكان موقع هذا الرواق غرب رواق الأتراك [2] ، وكان يتولى مشيخته أحد أبناء تلك البلاد . وبالنسبة لرواق البرنو فخصص للطلبة القادمين من غرب أفريقيا ويقع داخل رواق الجبرت[3].

أما رواق البرابرة فخصص للطلبة القادمين من موريتانيا ويقع شمال الداخل من باب المقصورة الشرقي[4] ، ورواق الدكارنة كان مخصصاً للوافدين من بلاد التكرور ومسار ودارفور[5] ، ولكن مشيخة الرواق يتولاها أهالي التكرور . ورواق دكارنة صليح خُصِّص للطلبة من تشاد[6].

كما يجدر بالذكر وجود أروقة كانت لا تلتزم بشروط الجنسية ولا المذهب في استقبال الطلبة ، مثل رواق ابن يعمر [7] ورواق السليمانية [8] الذي فتح أبوابه للطلاب في كافة بقاع العالم الإسلامي. وكما وجدت أروقة للطلبة المغتربين من مشرق ومغرب العالم

---

1 – علي مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ4 ، ص57 .

2 – عبدالعزيز الشناوي : مرجع سبق ذكره . ص 261

3 – علي مبارك : المصدر السابق ، جـ4 ، ص 54 .

4 – المصدر السابق ، جـ4 ، ص 54 .

5 – نفسه ، جـ 4 ، ص 57 .

6 – نفسه ، جـ4 ، ص 52 .

7 – رواق بن يعمر : يقع على يمين الداخل للأزهر ، وعدد أعمدته ثمانية أعمدة انظر علي مبارك: المصدر السابق ، جـ4. ص 53 ، 54.

8 – رواق السليمانية: يقع على يمين باب الشوام ورواق الجاوة ، به خمسة مساكن . المصدر السابق ، جـ 4 ، ص52 ، 53.

الإسلامي ، وجدت أيضاً أروقة للطلبة المصريين الذين كانوا يأتون من شمال أو جنوب مصر وأشهرها رواق الشراقوة ورواق الصعايدة .

وكان الفرق بين أروقة المصريين والأجانب هو أن أروقة الأجانب كانت أكثر في الموارد المالية التي كانت تخصص لها ، والسبب في ذلك كون هؤلاء الأجانب أَوْلَى بالرعاية من المصريين نظراً لقدومهم من بلاد بعيدة ، مع طول الفترة التي كانوا يقضونها في تحصيل العلم [1]

أما عن الموارد المالية للأروقة التي كان ينفق منها عليها فكانت عبارة عن الأموال التي كانت موقوفة على الجامع الأزهر بصفة عامة أو التي كانت تُخصَّص للأروقة من التبرعات التي كان يقدمها أهل الخير للإنفاق منها على الطلبة ، وأيضاً وجود مورد ثابت وهو هبات السلاطين و الأفراد التي كانوا يهبونها للأروقة [2] وكانت مصارف هذه الأموال تُستخدم في شراء الكتب و الإنفاق على الطلبة الفقراء و أيضاً شراء الخبز لهم . [3] و كانت هذه الأموال لا تخضع لرقابة الدولة و تتمتع بالاستقلال المالي ، والشرط الوحيد الذي كانت تخضع له هو وصية الواقف وما جاء بها من شروط وضوابط للصرف والتخصيص . [4]

1 - الشناوي : مرجع سبق ذكره ، ص 244 .
2 - الشناوي : المرجع السابق ، ص 244 .
3 - المقريزي : الخطط ، جـ 3 ، ص 196 ، 197.
4 - وثائق السلطان حسن ، جـ 3 ، ص 395 ، 396.

3 - الأوقاف التي كانت تُخصَّص للإنفاق على الطلبة

كانت الأوقاف التي يطلق عليها الأحباس [1] من أجل الإنجازات التي ميزت الحضارة الإسلامية ، للدور الذي قامت به في دفع عجلة الحياة العلمية في المساجد والمدارس ، بتوفيرها الموارد المالية اللازمة لها ، وقد استطاعت هذه المؤسسات من خلالها التحرر والاستقلال المالي البعيد عن رقابة الدولة ، مما كان له الأثر في توفير مناخ علمي حر ، ساعد على تقدم العلوم وازدهارها في تلك العصور .

وقد تنوعت الأوقاف المخصصة للأعمال الخيرية إلى عدة أنواع من حيث طبيعتها ونوع واقفيها ، أما من حيث طبيعتها فقد كانت هناك أوقاف ذات أصول ثابتة مثل العقارات التي ينفق من ريعها على طلبة العلم [2] ، ثم عرف بعد ذلك وقف الأراضي الزراعية في مرحلة أخرى [3]. كما تنوعت طبقاً لشخصية الواقف . فقد كانت هناك أوقاف وأحباس مخصصة من قِبَل الحكام ، وأوقاف كانت مخصصة من رجال الخير وكبار الأثرياء والتجار [4].

أما عن طريقة إدارة الأوقاف ، فقد عُيِّن لها شخص يشرف على إدارتها ، يسمى ناظر الوقف وكان تعيينه يتم من قِبَل صاحب الوقفية [5] وكان يحصل على مرتبه من هذه الأوقاف . وكان يقوم ناظر الوقف بتحصيل الإيرادات وتوزيعها على مستحقيها طبقاً لوصية الواقف. [6]

وكانت غالبية المصارف التي تنفق فيها الأوقاف ، عبارة عن أجور للعاملين على الوقف ، وأيضاً تحديد نسبة للإنفاق على الطلبة ، بالإضافة لتخصيص جزء من الوقفية

1 - الرازي : مصدر سبق ذكره ، ص 120.
2 - المقريزي : الخطط ، ج 3 ، ص 194.
3 - المصدر السابق ، ج 3 ، ص 194.
4 - نفسه : ج 3 ، ص 163.
5 - نفسه : ج 3 ، ص 196 ، 197.
6 - وثائق السلطان حسن ، ج 3 ، ص 395 ، 396.

لصيانة المسجد وفَرْشه بالحُصُر في المواسم والأعياد ، وأيضاً كان يخصص جزء من هذه الأوقاف للصرف منها على علماء المسجد أو المدرسة ، وجزء كان يخصص لشراء الكتب وأدوات الكتابة اللازمة للعملية التعليمية . وكانت هذه المصارف تحدد طبقاً لوصية الواقف ، الذي كانت له مطلق الحرية في تحديد مصارف وقفه . وكانت شروطه تعتبر بمثابة قانون ملزم لناظر الوقف [1]

وبالنسبة للأزهر ، فتاريخ الأوقاف فيه يعود إلى بدايات إنشائه سنة 361هـ/ 972م عندما قام الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي في عام 386 هـ/ 996 م بتخصيص وقف للأزهر ، أنفق منها على الجامع الأزهر وخُصِّص لفرش المسجد وإضاءته ودفع مرتبات العاملين فيه[2]. وقد تبارى بقية الخلفاء الفاطميين في الإنفاق على الجامع وتخصيص الأوقاف اللازمة له[3].

وبعد قيام الدولة الأيوبية ، ونظراً لمحاولتها إضعاف مكانة الأزهر فقد بدأت في مصادرة الأوقاف التي كانت مخصصة له ، ولم يُذكَر عن أي حاكم أيوبي أنه خصص أوقافاً للأزهر ، رغم سعة إنفاقهم على المنشآت التي أقاموها. كما انتهز الأفراد فرصة إهمال الدولة لشئون الجامع الأزهر واستولوا على البقية من الأوقاف الخاصة بهذا الجامع[4].

وعندما قامت الدولة المملوكية الأولى وفي عهد السلطان بيبرس بالذات تمت إعادة

---

1 – بلغ من اهتمام المسلمين بتنفيذ شروط الواقف ، أنه كان يقوم بكتابة تلك العقود ، علماء مشهود لهم بالتقوى أمثال ابن حجر . انظر السخاوي الجواهر والدرر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، 1996م ، ج 1، ص 2 – 3 .

2 – من أمثلة هذه الوقفيات، وقفية الخليفة الحاكم بأمر الله (386م / 996 م) ووقفية الأمير بيلبك الخازندار . انظر المقريزي : الخطط ، ج 3 ، ص 157 – 160.

3 – محمد بن عبدالله الزركشي : إعلام المساجد بأحكام المساجد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، 1996م ، ص 35.

4 – كان من الأحداث التي ذكرها المقريزي هو قيام بعض القضاة بإصدار حكم بيع الأوقاف التي خربت : انظر المقريزي ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 197 .

أوقاف الأزهر إليه ، بل لم يتوقف الأمر على ذلك حيث تبارى الحكام والأمراء في تخصيص الأوقاف على الجامع .

ومن أشهر تلك الأوقاف وقفية الأمير (بيلبك الخازندار)[1] الذي خصص وقفية للإنفاق منها على دروس الفقه الشافعي[2] ودروس الحديث والقراءات واشتهر أيضاً من أصحاب الأوقاف على الأزهر الأمير (الطواشي سعد الدين) [3] الذي قام بتخصيص وقفية على العلماء الذين كانوا يقومون بتدريس الفقه الحنفي[4]. وبذلك شهد الأزهر تنافساً من جميع الأمراء بتخصيص الأوقاف اللازمة للإنفاق عليه من ريعها ومن كان له الأثر في قيام الأزهر بواجباته المالية تجاه مريديه[5].

وقد عرف الأزهر نوعين من الأوقاف ، هي الأوقاف العامة والأوقاف الخاصة . فالأوقاف العامة هي التي كانت تخصص للجامع ككل وينفق منها على الجامع. أما الأوقاف الخاصة وهي التي كانت تخصص لأروقة معينة أو لمدارس معينة كانت ملحقة بالأزهر مثل المدرسة الطيبرسية [6] والمدرسة الأقبغاوية[7].

وقد ترتب على وجود نظام الأوقاف نتائج كثيرة بالنسبة لطلبة العلم والعلماء ، حيث إن طلبة العلم كانوا يأتون غالباً من بلاد بعيدة وكانوا بصفة عامة فقراء ، فوفرت لهم الأوقاف الحد الأدنى من المعيشة ، حيث كانت تصرف جرايتهم من هذه الأوقاف. كما كانت تُصرف لهم الحلوى وغيرها في الأعياد[8].

---

1 - انظر ترجمته في الفصل الأول هامش رقم 5 ص 32.

2 - المقريزي : المصدر السابق ، ج 3، ص 260.

3 - الطواشي سعد الدين : بشير الجامدار الناصري ،كان من خاصة الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، له عمائر في الأزهر مثل تجهيزه بالصناديق والخزائن ، وله أوقاف خصصها للأزهر. انظر المقريزي : نفسه ، ج 3، 161.

4 - نفسه ، ج 3 ، ص 162.

5 - المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 163.

6 - انظر عن المدرسة الطيبرسية انظر الفصل الأول .

7 - عن المدرسة الأقبغاوية انظر الفصل الأول ص 33.

8 - المقريزي : الخطط ج 3 ، ص 163.

وبالنسبة لأهمية الأوقاف بالنسبة للعلماء. فكانت تمثل لهم مصدراً رئيسياً للدخل ، حيث كانت أغلبية العلماء ممن يقومون بالتعليم لايحصلون على مرتباتهم من الدولة إلا في حالة التدريس في المدارس الحكومية ، وكان هؤلاء العلماء الذين يقومون بالتدريس في تلك المنشآت فئة قليلة ، ولكن الغالبية العظمى كانت تعتمد على الوقف كمصدر أو للحصول على مرتباتهم [1].

1 – انظر مجموعة وثائق السلطان حسن : تذكرة النبيه ، ج3 ، ص 395 ، 396.

obeikandl.com

4- العلوم التي كان الأفارقة يدرسونها في مصر

كانت العلوم التي تدرس للطلبة الأفارقة في الأزهر تتماشى مع رغبات هؤلاء الطلاب ونوعيات ثقافتهم التي تلقوها في بلدانهم الأصلية ، ولذا انقسمت هذه العلوم التي كانوا يدرسونها إلى قسمين هي : علوم مطلوبة لذاتها ، وعلوم تمهد لغيرها هذا بالإضافة للعلوم العقلية .

أولاً: العلوم المطلوبة لذاتها :

وهي العلوم الدينية ، حيث كان يعتبرها المسلمون مطلباً لهم تنفعهم في الحياة الدنيا والآخرة ، وكانوا يحثون أبناءهم على طلبها ويتكلفون المشاق في السفر إلى البلدان التي اشتهرت بتدريسها . ومن أشهر هذه العلوم علم تفسير القرآن الكريم ، ودراسة الحديث ، ومصطلح الحديث ، وعلم القراءات ، ورسم المصحف ، وعلم الفقه وأصوله [1].

ثانياً : العلوم التي تمهد لغيرها :

وهي علوم اللغة العربية [2] ، حيث كانت تُستخدم كوسيلة لفهم الدين ودراسة إعجاز القرآن الكريم . وهذه العلوم هي علم النحو ، وعلم البيان والبديع ، وعلم الصرف ، وعلم العروض [3].

ثالثاً : العلوم العقلية :

كان الطلبة الأزهريون يفضلون غالباً دراسة المنطق لاستخدامه في الجدل مع أصحاب الديانات الأخرى وفي استنباط الأحكام كما كانوا يهتمون بدراسة علم الكلام . أما بالنسبة للفلسفة فكانت لا تجد قبولاً بين هؤلاء الطلاب ، كما وُجد إقبال ضعيف على

---

1 - ابن خلدون : المقدمة ، ص 486.
2 - المصدر السابق ، ص 629.
3 - نفسه ، ص 486.

بقية العلوم العقلية الأخرى باستثناء الحساب الذي كان له أهمية في دراسة علم الفرائض والمواريث [1].

وكانت توقيتات الدراسة تمتد طوال ساعات النهار حتى صلاة العشاء ، وكانت تخصص عطلة أسبوعية تشمل يومي الخميس والجمعة للطلاب يترك لهم الحرية فيها في تنظيم شئونهم واستذكار ما فات من دروسهم [2] وكان لهذه العطلات دور كبير في عملية التعارف بين هؤلاء الطلاب والمجتمع المصري آنذاك.

وكان هؤلاء الطلاب يُعاملون في الأزهر معاملة قائمة على قدم المساواة مع نظرائهم المصريين ، حتى في طريقة الامتحان فبعد الانتهاء من فترة التحصيل الدراسي واطمئنان الطالب على استيعاب ما حصَّله يبدأ في التقدم للامتحان بنفس الطريقة التي كان يختبر بواسطتها زملاؤه المصريون وهي طريقة عرض الكتاب الذي حفظه على شيخه [3] .

وبعد اجتيازه الامتحان بنجاح ، كان الطالب ينتظر الجائزة الكبرى ، وهي حصوله على الإجازة . وكان الحصول على الإجازة عملية مهمة أيضاً في حياة الطالب الأفريقي ، حيث ستؤهله بعد ذلك للعمل بالتدريس أو القضاء ، أو العمل بالإمامة بعد رجوعه إلى بلده .

ولم يكن الحصول على الإجازة في الأزهر رغبة تملك الطلبة الوافدين فقط ، بل كان الحصول عليها أمنية يتمنى الكثير من أبناء القارة تحقيقها وإن لم يحضروا للدراسة في الأزهر ، فكانوا يراسلون علماء الأزهر ، لكي يحصلوا على تلك الإجازة بعد ذكر الكتب التي قاموا بدراستها ، وكان العلماء يقومون بإعطائهم الإجازات وإرسالها لهم في بلداتهم [4] .

---

1 – ابن خلدون : المقدمة ، ص 540.

2 – عبدالعزيز الشناوي : مرجع سبق ذكره ، ص 289.

3 – القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 14 ، ص 325.

4 – السخاوي : الضوء اللامع ، ج 1 ، ص 356.

أشهر العلماء الأزهريين الأفارقة:

كان من نتائج جهود علماء الأزهر المصريين والأفارقة ظهور طائفة كبيرة من العلماء في جميع أنحاء القارة ، في شرقها ، وشمالها ، وغربها ، ومن أمثلة هؤلاء العلماء ، وطلاب شمال أفريقيا (بلاد المغرب الإسلامي) الذين أتوا لمصر ونهلوا من نبعها العلمي في الأزهر (البجائى [1] وعبدالرحمن بن علي القصرى) [2] .

ومن علماء بلاد المغرب الإسلامي أيضاً الغماري [3] والتجيبى [4] وزروق [5] والصفاقسى [6] .

وبالنسبة لمنطقة الغرب الأفريقي والمعروفة اصطلاحاً باسم بلاد السودان الغربى، اشتهر منها علماء أزهريون ، كانوا لا يقلون قيمة ، ولا علماً عن نظرائهم سواء العلماء المصريين أو غيرهم ، وقد تميز هؤلاء العلماء بغزارة علمهم ، وكثرة مؤلفاتهم.

---

1 -البجائي : عبدالقوى محمد بن عبدالقوي البجائى ، ولد في بجاية بتونس عام 743هـ/ 1342م ، وقدم إلى مصر وعمره ثمانية عشر عاماً ، وأقام بالأزهر ، واشتهر ببراعته في الفقه وعلوم الحديث . توفي عام 816هـ/ 1413م . انظر ابن تغري بردي: المنهل الصافي ، ج 7 ، ص 328 ، 329 .

2 -عبدالرحمن بن علي بن أحمد القصرى ، ولد في فاس ، وتلقى علومه فيها ، وأتى لمصر عام 909هـ/ 1503م وتلقى علم الحديث عن أصحاب ابن حجر ، واشتهر برواية الحديث ، وسافر لبلاد السودان إلى كانو ، ورجع لفاس وتولى الخطابة بجامع الأندلس ، توفي عام 956هـ/ 1549 م. انظر: التنبكتي: نيل الابتهاج ، ص 264.

3 -الغماري : أحمد بن عيسى بن عبدالرحمن ، أتى لمصر بعد تلقي العلوم في تونس ، ودرس على يد الشيخ العز بن عبدالسلام ، واشتهر في علم أصول الفقه ، توفي عام 682هـ/ 1283 م بتونس . انظر: أحمدبابا التنبكتي: مصدر سبق ذكره ، ص 79.

4 -التجيبي : أحمد بن محمد بن عليكان كثير النظم في السيرة النبوية ، قدم للقاهرة وحفظ موطأ مالك ، وأقيم له احتفال بضرب البوق ، له مؤلفات في السيرة النبوية ، وله كتب عن تاريخ الأندلس والمغرب ، توفي أول رمضان بفاس عام 725هـ/ 1324 م . انظر: المصدر السابق ، ص 91 .

5 -زروق : أحمد بن أحمد بن محمود بن عيسى البرنسي الفاسي ، ولد عام 846هـ/ 1442م ، وتلقى العلم على السنهوري والدميري والسخاوي ، له كتاب شرح على الرسالة وشرح القرطبية ، توفي بطرابلس عام 899 هـ/ 1493 م انظر نفسه ، ص 131 ، 132 .

6 -الصفاقسى : إبراهيم بن محمد التميمي الصفاقسي ، ولد عام 697هـ/ 1297م ، تلقى العلم ببجاية والقاهرة ، واشتهر بأنه أحد أئمة القاهرة ، من أشهر مؤلفاته الروض الأريج في مسألة الصهريج ، والإعراب في اللغة ، وتوفي عام 742هـ/ 1341 م . انظر المصدر السابق ، ص 42 :44 .

ومن أشهر هؤلاء العلماءالعالم (محمود بن عمر) [1]وأحمد بن عمر بن أقيت [2] والعاقب بن عبدالله [3] والتازخنى [4] واشتهر أيضاً من بلاد السودان الغربي ، وكان له دور في الحياة العلمية عبدالعزيز التكروري[5] .

ومن علماء شرق أفريقيا عبدالله بن يوسف الزيلعي [6]وفخرالدين الزيلعي [7] وقد اندمج هؤلاء العلماء في البيئة المصرية وتأثروا بها وأيضاً أثَّروا فيها فلم يعيشوا في معزل بل كان لهم بصماتهم في الحياة المصرية .

1 – محمود بن عمر : بن علي بن يحي الصنهاجى ، تولى قضاء تنبكت عام 904هـ / 1498م ، وقام برحلة للحج وقابل القلقشندي واللقاني ، وأقروا له بالصلاحية ، وبرع في الفقه ويعتبر من شراح خليل وكانت رحلته للحج عام 915هـ / 1509م ، توفي عام 955 هـ/ 1548م . انظر التنبكتي : نفسه ، ص 607.

2 – أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت . كان من علماء الفقه واللغة ، تولى قضاء مدينة تمبكت ، ويعتبر من تلاميذ السيوطي والشيخ خالد الأزهري ، تولى بجانب القضاء التدريس ، توفي عام 942هـ/ 1535م : المصدر نفسه ، ص 137 ، 138.

3 – العاقب بن عبدالله الأنصفي . المسوفي من أكدس بلد بالغرب من السودان ، له مساجلات مع علماء بلده ، وأتى لمصر بتكليف من علماء بلده ليصوبوه في مسائل خالفهم فيها منها تأليفه جزء في وجوب الجمعة بقرية (أنصمني) ومن أشهر أساتذته الإمام السيوطي وكان حياً حتى عام 950هـ / 1543 م . انظر المصدر ذاته ، ص 353 .

4 – التازخنى : محمد بن أحمد بن أبي محمد ، مشهور بأبي أحمد ، تلقى تعليمه على يد القلقشندي ، وتولى قضاء كشن ، توفي عام936هـ/ 1529م. انظر المصدر السابق ، ص 587

5 – التكروري : عبدالعزيزالتكروري ، قدم لمصر عام850هـ/ 1446م ، ويعتبر من شراح مختصر خليل ،نال شهرة بمصر ،انظر أحمد بابا التنبكتي : مصدر سبق ذكره ، ص 275.

6 – عبدالله بن يوسف : جمال الدين عبدالله بن يوسف محمد الزيلعي ، تلقى العلم على يد ابن عقيل ، من أشهر مؤلفاته كتاب تخريج أحاديث الهداية ، توفي عام 712هـ / 1360م . انظر السخاوي : الضوء اللامع ، ج 1 ، ص 265 .

7 – فخرالدين الزيلعي : انظر ترجمته حاشية 4الفصل الثاني .

5 - تأثير الطلبة الأفارقة وتأثرهم بالحياة المصرية

لم يعش الطلاب والعلماء الأفارقة القادمون لمصر بمعزل عن الشعب المصري والحياة المصرية ، بل ساهموا فيها ، وتأثروا بالحياة والنظم المصرية وأيضاً أثروا فيها ، حيث اختلطوا بالشعب المصري على اختلاف طبقاته . وقد تعددت الأسباب التي ساعدت على عملية الاختلاط وساعدت على التأثير في حياة هؤلاء الوافدين.

من أولى هذه الأسباب ، سماحة الشعب المصري وترحيبه بالقادمين إليه بدون تفرقة بسبب اللون أو الأصل ، ومعاملة هؤلاء العلماء والطلاب معاملة أخوة يجمعهم دين واحد وهدف واحد بالإضافة لكرم الشعب المصري ، فقد كان الشعب المصري يمد لهم يد العون عند الحاجة ، بل يساعدهم في حالة الطلب ، حتى لو كان هؤلاء الوافدون أغنياء .

ومن الأسباب أيضاً التي ساعدت على اندماج هؤلاء في الحياة المصرية ، الاختلاط اليومي بالعلماء والطلاب المصريين في حلقات الدرس التي كانت تُعقد بالجامع الأزهر ، حيث كانت هذه الحلقات عامة لا تميز فيها بين جنس وآخر ، ولم تكن هناك حلقات خاصة إلا في حالة واحدة وهي حلقات الفقه فقط [1] ، وطبيعي أن تخصص حلقة لدراسة الفقه الشافعي ، وأخرى للفقه الحنفي ، وثالثة للفقه المالكي ورابعة للفقه الحنبلي ، وكل حلقة من هذه الحلقات كانت تجمع بين الطلبة المصريين والأفارقة وغيرهم ، كما أن الحرية التي تمتعت بها هذه الحلقات كانت توفر فرصة للنقاش ، مما ساعد على تبادل الأفكار بين هؤلاء الوافدين ونظرائهم المصريين.

وكان نظام التعليم في الأزهر يتيح أيضاً فرصة الاختلاط حيث كانت الدراسة في الأزهر تعطَّل يوم الخميس والجمعة كما سبق القول ، فكانت فرصة لهؤلاء الطلاب للخروج والاختلاط اليومي بالمصريين وتعاملهم مع الشعب المصري ، مما كان له الأثر الكبير في عملية التبادل الثقافي بينهم وبين المصريين .

---

1 -علي مبارك : الخطط التوفيقية ، ج 4 ، ص 60.

وكما تنوعت الأسباب التي ساعدت على تأثر هؤلاء العلماء والطلاب بالحياة المصرية فقد تنوعت أيضاً مظاهر هذا التأثر ، حيث نجد أن هذه المظاهر امتدت تشمل جوانب كثيرة من الحياة ، ومن أشهر هذه المظاهر:

أولاً: تولّي المناصب الدينية :

تولى العلماء الأفارقة الموجودون بمصر العديد من المناصب الدينية متساوين بذلك مع أقرانهم المصريين نظراً لطول إقامتهم في مصر واتخاذها موطنًا لهم. فقد تنوعت هذه المناصب التي تولوها ومن أشهرها تولي مشيخة الأروقة مثل الشيخ حسن الجبرتي الذي تولى مشيخة رواق الجبرت في الأزهر ، وظل هذا المنصب وراثيًا في أبنائه لفترة طويلة من الزمن [1].

ومن المناصب أيضاً التي تولاها هؤلاء العلماء منصب مشيخة الخانقاوات وهذا المنصب كان يتمتع بميزات خاصة لما للصوفية من تأثير في الحياة في ذلك الوقت . ونظراً لأن معظم الخانقاوات كان يقوم بإنشائها السلاطين ولذلك كان يُعتبر توليها في المناصب العامة والرسمية ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين تولوا القيام بهذا المنصب العالم فخر الدين الزيلعي [2] الذي تولى مشيخة الخانقاه الطقردمزية بالقرافة [3].

ثانياً : تولّي منصب القضاء :

ومن المناصب الدينية أيضاً التي تولاها هؤلاء العلماء ، منصب القضاء ، بل وصل بعضهم إلى منصب قاضي القضاة في مصر مثل عبدالرحمن بن خلدون الذي تولى هذا المنصب عدة مرات ، وكان قاضياً للمالكية في مصر [4].

---

1 –علي مبارك : الخطط التوفيقية ، ج 4، ص 54.

2 – انظر ترجمته في الفصل الثاني حاشية رقم 5 .

3 – الخانقاة الطقردمزية: لم تذكر الخانقاه في خطط المقريزي ، وأيضاً لم تذكر في الخطط التوفيقية – لذلك كان من الصعب أن نجد أية تفصيلات عن هذه الخانقاة ، إنما ذكرت فقط عند ترجمة فخر الدين الزيلعي في كتاب ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج 23 ، ص 61.

4 – السيوطي : حسن المحاضرة ، ج 2 ، ص462.

ثالثاً : تولّي وظائف التدريس :

بالنسبة لوظائف التدريس ، فقد شهدت هذه الوظائف أيضاً قيام الكثير من هؤلاء العلماء الأفارقة بتولّيها ، بل كانت لهم مدارس مخصصة لإلقاء الدروس فيها ومن أشهر العلماء الذين تولوا التدريس الرهوني[1] وفخر الدين الزيلعي ، ولم يقتصر الأمر على هذه المدارس ، بل وصل الأمر لتصدر حلقات العلم بالجامع الأزهر ، ويكفي كمثال على ذلك ابن خلدون الذي تولى التدريس به[2].

لم يكتف العلماء الأفارقة بتولي المناصب الدينية والعلمية في مصر بل تقربوا للحكام ، ونالوا الحظوة لدى هؤلاء الحكام نتيجة لاشتهارهم بالصلاح والتقوى. كما اندمج هؤلاء العلماء مع الطبقات الشعبية في مصر ، ولذلك أطلقت على أماكن بعينها أسماء هؤلاء العلماء مثل زاوية العالم الركراكي التي نُسِبت لعالم مغربي كان يقيم في مصر[3].

كما ساعدت روح الود والأخوة الإسلامية بين العلماء المصريين وبين أترابهم من العلماء الأفارقة على نمو وتوطيد العلاقات بين الفريقين وكانت أسس هذه العلاقات مبنية على الاحترام والاعتراف بالفضل ، مثال ذلك ابن خلدون الذي حضر لمصر وبدأ يتولى التصدير في الأزهر ، وأبدى كثير من معاصريه إعجابهم به وكانوا يُنزلونه منزلة كبيرة وتشهد بذلك التراجم التي ترجمت له بواسطة العلماء المصريين . كما أن الأفارقة كانوا لا يجحدون فضل أساتذتهم عليهم بل كانوا يطلقون عليهم الألفاظ التي تليق بهم[4].

---

1 - الرهوني : شرف الدين يحي بن عبدالله الفقيه المالكي ، من المغرب وكان يقوم بتدريس علم الأحاديث في المدرسة الصرغتمشية ، وكان يعمل بالإفتاء ، ودرّس بالمدرسة الشيخونية ، توفي عام 773هـ/ 1371م. انظر السيوطي : مصدر سبق ذكره ، ج 21 ص460 ، 461 .

2 -التنبكتي : نيل الابتهاج ،ص 252.

3 - الركراكي : أبوعبدالله محمدالركراكي ، من بلاد المغرب العربي ، لم تذكر المصادر أسماء فعلية ، عمل مدرساً للفقه المالكي بداخل الزاوية التي أسسها وكان الناس يتبركون به ، توفي يوم الجمعة سنة 794هـ/ 1391م في مصر . انظر المقريزي : الخطط ، ج3 ، ص 433 .

4 - انظر في ذلك تراجم أحمد بابا التنبكتي لبعض العلماء المصريين مثال ذلك ترجمته لكل من القلشاوي وسليمان بن شعيب بن خضر ص 176 ؛ ص 187 .

6 - إرسال بعض علماء الأزهر إلى أنحاء القارة

بدأ العلماء الأزهريون يشقون طريقهم تجاه القارة شمالاً ، وغرباً ، وشرقاً ، وكان دافعهم إلى ذلك أسباب عديدة ، منها رغبة هؤلاء العلماء في نشر الإسلام في القارة على اعتبار أنه جهاد ، وأيضاً استجابة للدعوات التي كانت تُوجَّه لهم من الحكام ، بالإضافة لسبب لايمكن تجاهله وهو السبب الاقتصادي الذي كان يحرك بعض العلماء للسفر لتلك الأنحاء [1] .

وقد اختلفت إقامة العلماء في القارة فمنهم من كان يقيم بصفة دائمة ، ومنهم من كان يقيم بصفة مؤقتة ، ومنهم من اعتبرها بمثابة رحلة يقوم بها سواء كانت لغرض علمي أو غرض تجاري [2] ، وكانت السمة الغالبة على هؤلاء العلماء هو تعدد جنسياتهم فمنهم علماء مغاربة ومصريون .وبمجرد وصول هؤلاء العلماء ، كانت تُعقد لهم حلقات علمية في المساجد يحضرها الطلاب ، كما كانوا يُكلفون أيضاً بالإشراف على المنشآت الدينية ومحاربة البدع التي كانت تنتشر في القارة [3] . مثال ذلك العالم العاقب الذي عقد حلقة لتصويب كتاب بعد عودته من مصر [4] .

كما كان هؤلاء الحكام الأفارقة يتبارون في الحفاوة بهؤلاء العلماء ، وينزلونهم منزلة تليق بهم ويجتمعون بهم ، ويرسلون لهم الهدايا . وقد شاهد ابن بطوطة عند زيارته لمقديشو مجموعة من العلماء كان على رأسهم ابن برهان الدين المصري وكيف كان يحتل هذا العالم مكانة كبيرة لدى السلطان [5] . كما أن مدن غرب أفريقيا كانت تشتمل على بعض العلماء المصريين [6] .

---

1 - الذهبي :دول الإسلام ، ج 2 ، ص 241 .

2 - المصدر السابق ، نفس الصفحة .

3 - عن البدع التي كانت منتشرة في القارة انظر وضيف الله :الطبقات : ص 5 ومحمد بن دلو إتفاق الميسور ، ص50 وأسئلة الاسكيا محمد ورد المقيلي عليها ورسالة الاسكيا محمد للبرطلي.

4 - التنبكتي : نفس المصدر ، ص 353.

5 - ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص 417.

6 - المصدر السابق ، ص 444.

7 - المساهمة في إنشاء العمائر التعليمية

تميزت المؤسسات التعليمية التي قام الأزهريون بإنشائها في دول القارة أنها كانت تغطي مراحل التعليم المختلفة ، وقد تنوعت هذه المؤسسات ، فمنها ما كان يختص بالتعليم الأوّلي ومنها ما اختص بالتعليم العالي . ومن أشهر هذه المنشآت الكتاتيب والمدارس . وقد سبق القول عند الحديث عن المنشآت الدينية بأن الإسهام الأزهري فيها كان يتمثل في عملية البناء أو الإشراف عليه أو يعملون على تعميرها علمياً . كذلك المؤسسات التعليمية فإن إسهام علماء الأزهر فيها بإنشائها ويظهر ذلك في الكتاتيب أو في إقامة حلقات العلم في المدارس . وقد أسهمت هذه المنشآت في إيجاد حياة علمية راسخة في القارة ، وتخرّج منها طلاب وعلماء كان لهم أيادٍ بيضاء في تعليم مواطنيهم ومن أشهر هذه المؤسسات :

أولاً : المكاتب :

الكتاتيب كلمة مفردها كتاب ، ويطلق عليها أيضاً المكتب [1] ، وهي في الأصل مبانٍ مُعدَّة كانت تلحق بالمساجد ، أو في أماكن منفصلة مثل البيوت ، لتعليم الصبية حفظ القرآن الكريم ، وأحياناً اللغة العربية في بعض البلاد التي كانت غير ناطقة بها ، بينما كانت في بلاد المغرب تخصص لتعليم القرآن الكريم [2] وقد انتشرت الكتاتيب في جميع أنحاء القارة الأفريقية . وكان من أسباب انتشارها سهولة إنشائها ، وعدم تكلفتها . فالكتّاب كان يكفيه مكان منزو في الجامع ، أو حجرة في المنزل ، بدون أية تجهيزات معينة ، على عكس المدارس التي كانت تحتاج إلى مبانٍ مستقلة وأماكن لإقامة الطلبة وخلافه .

وكان التعليم في هذه الكتاتيب يتم غالباً في فترة الصباح ، حيث إنها تعتبر من أنسب الأوقات لتعليم الصبية ، مراعاة لظروفهم العمرية . كما كانت الدراسة في الكتاتيب

---

1 - الرازي : مصدر سبق ذكره ، ص 562.

2 - ابن خلدون : المقدمة ، ص 630 ، 631 .

تُعطَّل بعد منتصف يوم الخميس والجمعة من كل أسبوع[1].

وكانت طريقة التدريس تعتمد على قيام الشيخ بقراءة القرآن الكريم ، والطلاب يرددون خلفه . وكان الغرض من هذه الطريقة تدريب الطلاب على طريقة النطق الصحيح لآيات القرآن الكريم يأتي بعد ذلك كتابة جزء من السورة في ألواح كانت مُعدَّة لهذا الغرض ، وكانت تُصنع من الخشب[2] لكي يسهل محو الكتابة من عليها بعد ذلك . وكانت أدوات الكتابة عبارة عن أقلام مصنوعة من البوص والريش والمداد ، وهو الحبر الذي يُصنع من بقايا الرماد[3].

أما السن المناسب للالتحاق بالمكاتب ، فكان يلتحق بها الطلاب في سن مبكرة لكي تساعدهم على الحفظ . وكان العلماء يقومون باستقدام هؤلاء الطلاب من قراهم ، أو يقوم آباؤهم بإرسالهم بصفة رئيسية لتعليم هؤلاء الصبية .

وبالنسبة لمرتبات المعلمين ، فكانت تخضع لشروط معينة ، وأيضاً تعتمد على ما كان الأهالي يؤدونه من أجور ، من هذه الشروط أن يقوم المعلم بالتعليم في مكان عام كالمسجد مثلاً ولا يأخذ أجراً إذا كان يعلم الصبي منفرداً[4]. وكانت المرتبات والأجور تقدر طبقاً لما يراه أولياء الأمور .

وقد ترتب على إنشاء هذه المكاتب نتائج باهرة ، حيث قامت هذه الكتاتيب بتجهيز الطلاب وإعدادهم لكي يتلقوا علومهم الشرعية ، والعربية ، كما ساعدت على انتشار حفظة القرآن الكريم نتيجة للانتشار الواسع لهذه الكتاتيب في القارة الواسعة واهتمام الآباء الأفارقة بتعليم أبنائهم حفظ القرآن الكريم لدرجة حبسهم في الغرف ، منعاً لخروجهم ، وضماناً لامتثالهم لدروسهم ، وقد بلغ الاهتمام مداه لدرجة أنهم يربطونهم

---

1 – القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، دار المعارف ، القاهرة بدون ، ص 314.

2 – الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ص 263.

3 – المصدر السابق ، نفس الصفحة.

4 – القابسي : مصدر سبق ذكره ، ص 362 .

أحياناً بالسلاسل حتى يقوموا بحفظه . كما شاهد ذلك ابن بطوطة بنفسه أثناء تجواله في غرب أفريقيا [1].

ثانياً : المدارس :

كان نظام المدارس بمفهومها المعاصر غير منتشر في القارة الأفريقية إلا في منطقة الشمال الأفريقي فقط . لأسباب منها رسوخ الإسلام والتقاليد الإسلامية في هذه البلاد منذ زمن بعيد . وأيضاً تعاقب كثير من الدول الإسلامية التي حكمت تلك الأماكن . ومن الأسباب أيضاً قوة تأثر تلك البلاد ببقية أنحاء العالم الإسلامي الذي كان يعرف هذا النوع من نظم التعليم [2]. أما منطقة الغرب والشرق الأفريقي فلم تعرف إلا حلقات دراسية كانت تُعقد في المساجد .

أما البرامج الدراسية في هذه المدارس الموجودة في شمال أفريقيا . فقد روعي فيها تغطية الاحتياجات الدينية في تلك البلاد ، مثال ذلك كانت تخصص معظم دروس الفقه للمذهب المالكي ، وعلوم القرآن الكريم ، ودراسة أسباب النزول والقراءات ، بالإضافة لعلم رسم المصحف في بلاد شمال أفريقيا والبرامج المخصصة لتدريس المذهب الشافعي والحنفي في بلاد شرق أفريقيا ، وبالنسبة لعلوم اللغة العربية كان يدرس علم النحو والبيان، ومن العلوم العقلية علم الكلام [3]. وقد بلغ الاهتمام ببناء المدارس والإنفاق عليها مبلغاً كبيراً من قِبَل السلاطين والحكام ، فقد خصصوا لها الأوقاف للإنفاق عليها فألحقت بهذه المدارس مساكن لإيواء الطلبة ، كما دُوِّنت بخزانات المياه مع الأعطيات للطلبة والصرف عليهم [4].

---

1 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 450.

2 - وجب محمد عبدالحليم ، نفس المرجع ، ص 252.

3 - ابن خلدون : المقدمة ، ص 501.

4 - ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج 7 ، ص 210.

أشهر المدارس في شمال أفريقيا :

الحديث عن المدارس في الممالك الإسلامية في شمال أفريقيا يطول ويحتاج إلى دراسات خاصة به ، وسيقتصر الحديث هنا عن المدارس التي بُنيت في عهد دولة بني مرين . وأول مدرسة قام بإنشائها بنو مرين هي مدرسة الخلفائين بفاس سنة 670هـ/ 1271م وكانت، تُعرف باسم المدرسة الصفارية . وقد خصص لها السلطان الأوقاف للإنفاق منها على الطلبة [1].

وهناك أيضاً المدرسة العنانية التي أنشأها السلطان أبو عنان فارس في سنة 756هـ/ 1355م وقد زارها الحسن الوزان [2] ووصفها وصفاً قيماً . وكان مبنى هذه المدرسة يشتمل على ثلاثة أروقة مسقوفة وزُوِّدت بجداول المياه ، ولها سقف خشبي مجزع ، كما تميزت بأن الجدران كانت مكسوة بالقيشاني ، وقد وصلت جملة الإنفاق عليها مبلغاً كبيراً ، ويُروى أن السلطان أبا عنان المريني عندما عرض عليه نفقات التكليف ووجد أن الصفحات الأولى من التقارير تجاوزت مبلغ الأربعين ألف دينار ألقى بالكشف في المياه [3] ، مبرهناً على أن الشيء الحسن لا يُقدر بالمال ، وقد بلغت تكاليف هذه المدرسة نحو أربعمائة وثمانين ألف دينار [4].

1 – الحسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص 231.
2 – المصدر السابق ، ص 231.
3 – نفسه ، ص 232.
4 – نفسه ، نفس الصفحة .

8 - الحفاظ على الهوية العربية والثقافة الإسلامية

واجهت الثقافة الإسلامية والعربية في قارة أفريقيا العديد من الصعوبات والعقبات. ولم يقف علماء الأزهر مكتوفي الأيدي تجاه هذه الصعوبات بل قاوموها وحاولوا القضاء عليها، متبعين في ذلك العديد من الوسائل. وقبل الحديث عن الوسائل التي اتبعوها يجب الحديث عن هذه الصعوبات والعقبات التي كان منها:

1 - تمسك الأفارقة بلغاتهم:

على الرغم من انتشار الإسلام في أفريقيا وما تبع هذا الانتشار من اعتناق الأفارقة للإسلام وتعلم بعضهم اللغة العربية، نجد أن هؤلاء الأفارقة ظلوا متمسكين بلغاتهم المحلية، ولم تشهد اللغة العربية انتشاراً واسعاً إلا في بلاد شمال أفريقيا. مثال ذلك ما ذكره ابن بطوطة في رحلته لبلاد مالي حيث ذكر أن السلطان لا يتحدث إلا من خلال ترجمان [1].

وبالنسبة لبلاد شرق أفريقيا فعلى الرغم من انتشار الإسلام بينهم وبحكم صلاتهم بالبلاد الإسلامية. فقد عرفوا تعدد اللغات، حيث كانت اللغة الأمهرية وغيرها من اللغات المحلية تنافس اللغة العربية [2]. ورغم وجود لغات محلية عديدة فقد انتشرت اللغة العربية بين كثير من السكان هناك وخاصة في الصومال واريتريا وجيبوتي ومدن ساحل شرق أفريقيا وكان وجود اللغة العربية يتركز أساساً في أنها كانت اللغة الرسمية في الإدارة والتعليم والمراسلات، بينما كان معظم السكان الأفارقة يتكلمون لغاتهم الأفريقية وخاصة في المناطق الداخلية في القارة.

2 - احتفاظ الأفارقة بعاداتهم وتقاليدهم:

كانت العادات والتقاليد الأفريقية الوثنية من أشد العقبات التي واجهها العلماء

---

1 - ابن بطوطة: الرحلة، ص 445.

2 - المقريزي: الإلمام عما بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص 8.

سواء كانوا أزهريين أو غير أزهريين وواجهتها الثقافة الإسلامية ، حيث تمسك كثير من الأفارقة بالعادات التي توارثوها عن أسلافهم [1] ، بل تعدى الأمر لمحاولة خلطها بالمتغيرات الجديدة التي حدثت لهم بعد اعتناقهم الإسلام وانتشار اللغة والثقافة العربية الإسلامية بين الكثيرين منهم .

3 - الصراع بين الإسلام والمسيحية :

لم يجد الإسلام الأرض ممهدة لانتشاره في أفريقيا ، بل سبقه في الانتشار الديانة المسيحية ، وخصوصاً في الأجزاء الشرقية من أفريقيا ، حيث تسربت الديانة المسيحية منذ أقدم العصور ، وعلى الرغم من سماحة الإسلام وتعايشه مع كافة الأديان كان الأمر يختلف في تلك المنطقة ، حيث تعصب الأحباش للمسيحية ، ودخلوا في حروب ضد المسلمين . وكانت أسباب هذه الحروب محاولة الأحباش السيطرة على الممالك الإسلامية في بلاد الزيلع والقضاء على الإسلام هناك [2]

أما عن الوسائل التي استخدمها العلماء الأزهريون لمقاومة هذه الأفكار والعقبات التي كانت تهدد الثقافة العربية الإسلامية . فقد حاولوا جاهدين اتخاذ الأسلوب السلمي واتباع الموعظة الحسنة ، يتضح ذلك من خلال استعراض تلك الوسائل التي تتلخص في عدة نقاط منها تشجيع تعلم اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية فقد كان العلماء الأزهريون سواء كانوا قادمين من مصر أم من أصل البلاد الأصليين يحاولون تشجيع الطلاب على تعلُّم اللغة العربية بإرسالهم إلى مراكز العلم المشهورة كالأزهر .وأيضاً كمظهر من مظاهر التشجيع التوصية بتعيين هؤلاء الطلاب في المناصب العامة مثل منصب القضاء والفتيا وأيضاً جذب الأفارقة للعمل بالتدريس والانخراط في الطرق

---

1 - محمد بن بلو : إتفاق الميسور ، ص 50.

2 - لمزيد من التفصيل عن هذه الحروب وأسبابها . انظر رجب محمد عبدالحليم : الصراع بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة . ص120: 67.

الصوفية تشجيعاً لهؤلاء الطلاب وإعطائهم فرصة للقيام بدورهم في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي بين أهاليهم بعد عودتهم إلى بلادهم[1] . كما أن استخدام أسلوب الوعظ والإرشاد كان أيضاً من الأساليب التي اتبعها العلماء الأزهريون لمحاولة محو العادات الوثنية ، ومحاولة إبراز القيم الإسلامية ولذلك كانت تُعقد حلقات الوعظ في المساجد والمجالس لذلك الغرض . ولم يتوقف مجهود هؤلاء العلماء على هذه الوسائل فقط بل كانوا يشتركون أيضاً في القتال أثناء الحروب التي كانت تُشَن على الوثنيين الذين كانوا يهاجمون الدول الإسلامية في القارة .

1 – ودضيف الله : الطبقات ، ص 6.

obeikandl.com

9 - بروز دور الجامع الأزهر الشريف عن نظائره من الجوامع الأخرى في القارة

من الجوامع التي شهدت نهضة علمية ، وحازت شهرة كبيرة في قارة أفريقيا جامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس في بلاد المغرب . وقد شهد الجامعان اهتماماً كبيراً من حكام هذه الدول ، مما جعلهما يصبحان منارتين للعلم في شمال أفريقيا . وسوف نعرض بإيجاز تاريخ الجامعين ، لنعرف مدى أهمية الجامع الأزهر الشريف بالنسبة لهما ، ولنعرف مدى تأثيره عليهما .

أولاً : جامع الزيتونة:

قام بإنشاء هذا الجامع والي ولاية أفريقية عبيد الله بن الحباب (116 - 123هـ/ 735 - 742م) وقد تميز هذا الجامع بكبره واتساعه ، وقد أدخلت عليه عدة تجديدات في عهد دولة الأغالبة[1] وعندما قام زيادة الله (201 - 223هـ/ 816 - 838م) بتجديد الجامع ، ولكنه لم يكمله ، لأنه وافته المنية . وفي عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبي (242 - 249هـ/ 856 - 863م) تم تكملة بناء الجامع ، وبناء قبابه المضلعة ، ثم زيدت عليه ، أعمدة رخامية مزيَّنة بالزخارف ، والنقوش المكتوبة بالخط الكوفي الجميل . وقد شهد هذا الجامع نهضة علمية . ومن أشهر العلماء الذين درسوا ، وتعلموا فيه الخدري ، والذي تولى الإفتاء في تونس ، وتوفي عام 879هـ/ 1474م[2] .

ثانياً : جامع القرويين:

سُمِّي الجامع بهذا الاسم نسبة لأهالي القيروان[3] ، وقد أسسته فاطمة بنت محمد

---

1 - محمد زينهم عرب : مقدمة تاريخ افريقيا والمغرب . ص32.

2 - الخدري : ابراهيم بن محمد ، تلقى العلم بتونس على يد عبدالله القلشاني ، وتولى الإفتاء بتونس . انظر التنبكتي: نيل الابتهاج ص66.

3 - علي عبدالواحد : هامش كتاب وصف أفريقيا . ص230.

في عام (245هـ/ 859م) ، وقد أُدخلت عليه عدة تعديلات وإضافات . وقد تميز هذا الجامع بكبر مساحته ،إذ بلغت حوالي (2400كم)وله واحد وثلاثون باباً كبيراً ، كما أنه يُضاء كل ليلة بحوالى ستمائة سراج ، وزوِّد بكراسى لإلقاء الدروس عليها[1] .

وقد شهد جامع القرويين ازدهاراً كبيراً ، في عهد الدولة المرينية ، نتيجة للحرية الفكرية ، التي تميز بها هذا العصر ، وأصبح مركزاً لتعليم المذهب المالكي ، وقد تخرَّج منه كثير من العلماء مثل قنفذ[2] .

وهكذا لعبت جوامع شمال أفريقيا دوراً هاماً في الحياة التعليمية ، وكان لها الأثر الكبير في نشر المذهب المالكي في أفريقيا . وقدكانت هذه المساجد بمثابة مرجعية دينية لبلاد المغرب الإسلامي ، كما تخرج منها كثير من العلماء . وعلى الرغم من كل هذه الحيثيات السابقة ، لم تستطع هذه الجوامع منافسة الأزهر الشريف ، أو الإقلال من قيمته . وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على تبوء الأزهر هذه المكانة الفريدة ومن هذه العوامل:

أولاً : تعدُّد مجالات الدراسة في الأزهر:

تميَّز الأزهر بتعدد مجالات الدراسة فيه ، فقد كانت تدرس فيه كل المذاهب الإسلامية الأربعة وهي المذهب الحنفي. والشافعي ، والحنبلي ، والمالكي ، وقد خصص الأزهر الشريف لكل مذهب من هذه المذاهب حلقة خاصة به يتدارس فيها أصحاب كل مذهب بدون تفرقة .بينما تخصصت مساجد شمال أفريقيا بتدريس المذهب المالكي فقط[3]وكان من الطبيعي أن تتجه أنظار المسلمين إلى الجامع الأزهر .

---

1 - محمد عادل عبدالعزيز: التربية الإسلامية في بلاد المغرب . ص51.

2 - قنفذ: أحمد بن حسين الشهير بابن الخطيب ، ولد عام740هـ/1339م ، من أشهر مؤلفاته شرح الرسالة ، توفي عام810هـ/1407م . انظر التنبكتي . ص109 - 110.

3 - انظر هامش 2 .

كما تميزت الدراسة في الأزهر بأنها حوت كل العلوم ، والتي كانت سائدة في ذلك العصر ، فكان بجوار العلوم الدينية والعربية يتم تدريس العلوم العقلية مثل الطب، والفلك ، والرياضيات على عكس الجوامع الأخرى والتي كانت مخصصة لتدريس العلوم الدينية والعربية فقط[1] .

ثانياً: وقوع مصر في طريق الحج:

كانت رحلات الحج تعتبر مناسبة لأداء الفريضة ، ولتلقّي العلم . وقد كانت مصر بحكم موقعها الجغرافي تقع في الطريق المار لبلاد الحجاز ، كما تعتبر بمثابة محطة رئيسية للحجاج ، ولذلك كان الجامع الأزهر الشريف يستقبل كثيراً من الأفارقة الذاهبين للحج أو في أثناء عودتهم منه . وتزخر كتب التراجم بالكثير من العلماء الذين تلقوا تعليمهم في الأزهر الشريف أثناء رحلتهم للحج مثل البجائي[2] ، والتكروري[3] . كما كان من عادة قوافل الحج أن تصطحب معها علماء من الأزهر وأثناء عودتهم إلى أفريقيا .

ثالثاً : تعدد الموارد المالية للأزهر الشريف:

نظراً لكثرة الموارد والتي خصصها سلاطين المماليك للأزهر ، والموارد التي خصصها الأمراء وبالإضافة لوجود الأروقة والتي كانت مخصصة لاستقبال الطلاب استطاع الأزهر استقبال الطلاب الأفارقة ، وإعاشتهم .

رابعاً : كثرة العلماء الموجودين في مصر:

كانت مصر منذ سقوط بغداد في عام (656هـ/1258م) مقصداً لكل العلماء الذين هاجروا من بغداد ، بالإضافة لتشجيع سلاطين المماليك للعلم والعلماء ، وكان له بالغ الأثر في زيادة أعدادهم . كما أن الموروث الحضاري للشعب المصري قد استطاع إفراز

---

1 – عادل عبدالعزيز: مرجع سبق ذكره . ص51.
2 – البجائي: انظر ترجمته في الفصل الثالث .
3 – انظر ترجمته في الفصل الثالث .

الكثير من العلماء مثل ابن هشام[1] في علم اللغة ، وجمال بن سليمان[2] في علوم القرآن الكريم ، وفي الحديث القسطلاني[3] . وفي الفقه ابن بنت الأعز[4] . كما شهد الأزهر علماء قادمين إليه مثل القزويني .

خامساً : طبيعة الشعب المصري:

تميز الشعب المصري على مدى العصور التي مرت به بحبه للضيوف ، وإكرامه لهم ، وبالتالي لم يشعر أي أفريقي بالغربة ، بل كان يحس بأنه بين قومه وعشيرته ، لذا كان من الطبيعي أن يفضل هؤلاء الأفارقة القدوم لمصر ، والتعلم في الأزهر الشريف ، ومنهم من كان يختار مصر إقامة دائمة له ، حتى بعد انتهاء دراسته .

تلك كانت أبرز إنجازات الأزهر الشريف في الممالك الإسلامية في أفريقيا ، والتي قامت بتغيير نمط الحياة بها ، وطبعها بالطابع الإسلامي .

---

1 – انظر ترجمته في الفصل الأول . ص57 .

2 – جمال الدين: محمد بن سليمان واشتغل بالتدريس في الأزهر ، وكان من المفسرين ، له كتاب الخصائص وتوفي عام 698هـ/ 1298م . انظر محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1971م ، ص157ج1.

3 – القسطلاني: شرف الدين أحمد بن علي ، ولد عام 648هـ/ 1250م بمصر تلقى علومه في قوص ، والقاهرة ، توفي عام 714هـ/ 1314م . انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج7 ص223.

4 – ابن بنت الأعز: عبدالوهاب بن خلف ، قاضي القضاة ، تولى التدريس بالأزهر توفي عام 695هـ/ 1295م . انظر ابن تغري ، والمصدر السابق ، ج3 ، ص223.

10 - الدور العلمي والتعليمي للأزهر بعد عصر المماليك

لم يتوقف عطاء الأزهر العلمي والتعليمي في أفريقيا على عصر المماليك فقط ، بل تعداه إلى العصور الحديثة . وكانت أبرز هذه الإنجازات هي:

أولاً : استقبال الدارسين من أبناء أفريقيا :

واصل الأزهر استقباله لطلاب العلم الأفارقة من كافة أنحاء أفريقيا ، فعلى سبيل المثال في عهد دولة سنار[1] وفي عهد سلطانها الشيخ عجيب بن الشيخ عبدالله جماع ، والذي تولى في الفترة من (970 - 1019هـ / 1536 - 1610م) أخذ الطلاب السودانيون يفدون إلى الأزهر الشريف لتلقّي العلم .

وكانت هناك إجراءات تُتبع في إرسال هؤلاء الطلاب إلى الأزهر ، وهي أن يتم تلقي العلم أولاً على العلماء المحليين المقيمين في السودان ، ثم يتم إرسالهم إلى مصر لتلقي العلم . ومن أشهر هؤلاء العلماء الشيخ عمار بن عبدالحفيظ[2] .

ثانياً : إرسال العلماء الأزهريين للسودان :

كان من أبرز مظاهر الدور العلمي والتعليمي في الأزهر إرسال بعض العلماء المصريين لتعليم السودانيين . وكان من أبرز هؤلاء العلماء الشيخ محمد مصري القناوي ، وهو من مدينة إدفو بصعيد مصر . تتلمذ على يد الشيخ سالم السنهوري ، والشيخ يوسف الزرقاني . قدم للسودان في منتصف القرن العاشر الهجري الموافق السادس عشر الميلادي ، واستقر في مدينة بربر وأنشأ جامعاً في المخيرف . وله من المؤلفات المشهورة (الشرح على عقيدة السنوسي الصغرى) وكتاب (العشماوية) ورسالة في شرح البسملة . وقد تتلمذ على يده كثير من علماء السودان وقد بلغ عدد تلاميذه ما يقرب من 300 طالب ،

---

1 - عن دولة سنار انظر الفصل الثاني .

2 - عمار بن عبدالحفيظ : ولد بسنار وتلقى العلم في الأزهر في عام 1077هـ / 1666م ، ودرس العلوم الشرعية والعربية ، والعلوم النقلية . انظر محمد سليمان : مرجع سبق ذكره . ص 21 .

واشتهر منهم الكثير مثل الشيخ محمد بن عيسى المعروف بسوار الذهب ، والشيخ محمد المضوي[1] .

ومن علماء الأزهر المصريين العالم محمد بن قرم الكيماني ، قدم للسودان في عام 970هـ/ 1563م وزار الجزيرة ، وسنار ، وبربر . ويعتبر من أوائل من قاموا بنشر المذهب الشافعي . ومن تلاميذه الشيخ عبدالله العركي ، والقاضي دشين ، والشيخ إبراهيم الفرضي[2] .

ثالثاً : إنشاء المؤسسات التعليمية:

ساهم الأزهر الشريف في إنشاء المؤسسات العلمية والتعليمية في القارة الأفريقية، فبجانب المؤسسات المعروفة مثل الكتاتيب ، والزوايا ، والخلاوي قام الأزهر بإنشاء مؤسسات علمية كان الغرض منها تأسيس وتجميع هذه المراكز المنتشرة في هيئات ذات كيان يخضع للوائح ونظم ، وكان من أشهر هذه المؤسسات المعهد العلمي بالسودان.

وتعود أهداف نشأة المعهد العلمي في السودان ، لرغبة انجلترا في منع الطلبة السودانيين من القدوم إلى مصر والالتحاق بالأزهر الشريف ، حتى لا تتسرب إليهم الروح الثورية ، ويتأثرون بالفكر الثوري السائد في مصر . ولذلك قررت استقدام مجموعة من العلماء المصريين للسودان لتطوير التعليم الديني ، وكان من نواة أعمالها إنشاء المعهد العلمي[3] .

وبعد وفاة الشيخ محمد البدوي عام 1911م ، خلفه في شياخة علماء السودان الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم ، حيث قام بجمع العلماء الذين يدرسون في منازلهم ، ويدرسون

1 – محمد سليمان : المرجع السابق . ص 31 ، 32 .
2 – المرجع نفسه . ص 33 .
3 – محمد سليمان : مرجع سبق ذكره . ص 127 ، 128 .

في المساجد المتفرقة في جامع أم درمان الكبير، وقام بتأسيس المعهد العلمي . كما استصدر لائحة تنظيمية لهذا المعهد على غرار لائحة الأزهر ، كما قرر مناهج الأزهر لهذا المعهد . واستقدم الشيخ محمد شاكر والذي كان قاضياً للسودان في الفترة من (1900 - 1904م) لمعاونته في هذا العمل[1] .

1 - محمد سليمان : مرجع سبق ذكره ، ص 127 ، 128 .

obeikandl.com